

التناقض الفكري والتناقض السببي

التناقض الفكري

مفهوم التناقض كما طرحه هيراقليطس، هو تعبير عن جوهر الأشياء، وهو الصيرورة والتغير، فالشيء وحدة متناقضات ناتجة عن الصيرورة والحركة. وكذلك في المنطق الجدلي يُعبّر التناقض عن المصدر الباطني للحركة ومبدأ التطور، فهو يشير إلى أن الأشياء في حركتها وتفاعلاتها مع بعضها تفسح عن تناقضات، عن حدود متعارضة يرتبط كل منهما بالأخر بحلقات توسطية مؤلفة وحدة الظاهرة أو الموضوع، وهذه العناصر هي في وضع تفاعل أو صراع ينفي بعضها بعضاً، وهذا الصراع بين المتناقضات يمهد الطريق إلى الأمام وينكشف كمبدأ للتطور والحركة. فمنطق التناقض كما عبر عنه هيغل في منظومته الجدلية، والتي يرى من خلالها أن فكرة التناقض هي «الفكرة - الأم»، فهو أساس كل حركة وكل صيرورة وتطور، فقط بقدر ما يحوي شيء من الأشياء تناقضاً، يكون هذا الشيء قادراً على الحركة وعلى الفاعلية. في نظره يطرح هذا المنطق الأشياء على أنها ليست مستقلة عما عداها وهي مرتبطة بالكل وتنتسب إليه، وتبعاً لذلك فإن الشيء ليس «ذاته» وإنما «مغاير لذاته»، مادام يحوي في داخله مبدأ سلبه أو نقضه، وهذا هو معنى الحركة التلقائية الداخلية بنظر هيغل، فالمتناهي مثلاً هو ذاته متناقض من حيث يستبعد اللامتناهي ويفترضه في الوقت ذاته كحقيقة له (للمتناهي)، فكل علاقة واقعية برأي هيغل إنما هي علاقة تناقض. وهذا المفهوم للتناقض يقصد به الصيرورة والتطور، أو التفاعل والتأثير المتبادل، أو الجدل كما يسمونه.

ولكن أرسطو قصد بالتناقض عدم الاتساق في التفكير، وأسس القانون المنطقي الشكلي للتناقضات بمعنى: أن الشيء لا يمكن أن يكون موجوداً أو غير موجود في الوقت ذاته، وهذا تابع لمبدأ (الهوية) إذ ليس بالإمكان إعطاء تعريفيين متعاكسين أي متناقضين في وقت واحد لشيء واحد.

وأيضاً يجب أن لا تتناقض النتائج مع المقدمات، فإذا كانت المقدمة:

كل أنسان فان هي صحيحة

وسقراط أنسان

فيجب أن تكون النتيجة هي سقراط فان وسيموت، وإذا لم يموت سقراط، أي لم تتفق النتيجة مع المقدمة، فهنا يحدث تناقض، فأما المقدمة غير صحيحة أو النتيجة غير صحيحة كذلك.

فالتناقض الفكري ينتج عندما تتناقض النتائج مع المقدمات المعتمدة، أي تنفيها أو لا تتفق معها، وهذا يؤدي إلى حكم خاطئ على المقدمات، فالتناقض هو الذي يؤدي إلى الخطأ بالحكم على نتيجة مقدمات موضوعية. وهذا ما نعتمده كمفهوم للتناقض .

في المنطق والرياضيات يمكننا تحاشي التناقض الفكري بدرجة تامة إذا لم يحدث أخطاء في المعالجات الفكرية .

والتناقض الفكري لدينا تشكل أو تكون بالاعتماد على التناقض السببي، والتناقض الفكري يتضمن التناقض السببي. فالتفكير المنطقي يقصد به عدم تناقض الأفكار مع بعضها فكرياً، ولكن المهم عدم التناقض السببي، أي عدم تناقضها مع بعضها تجريبياً واقعياً، وذلك من أجل تحقيق أهدافنا ومشاريعنا، فتحاشي التناقض السببي الواقعي هو المهم .

السببية

إن هدف ودور المعرفة هو استباق نتائج الأحداث بهدف التحكم بها أو تعديلها بما يناسبنا . فالتوقع أو التنبؤ الذي هو أساس المعارف وهو الذي ينتج السببية .

فالسببية هي: تحديد وتعيين واختصار أو اختزال للعوامل والمؤثرات الكثيرة، أي الأسباب المتعددة الكثيرة بسبب واحد أساسي وأهمال باقي الأسباب ، من أجل القيام بتحديد وتعيين الاستجابات المناسبة . فالأسباب تختزل بسبب واحد (أو عدد قليل من الأسباب) يتم التركيز عليه والتعامل معه .

واعتماد أهم العوامل والمؤثرات وجعله السبب في الحوادث هو أهم عمل لعقلنا . فالتحكم بالأسباب أو العوامل هو ما نعتمده في كافة تصرفاتنا من أجل تحقيق دوافعنا وغاياتنا .

ومهمة المعارف والعلوم هي تحديد هذه الأسباب . فيقولون فتش عن السبب وتحكم به في تغيير مجرى الحوادث . ولكن هذه الآلية لها حدود فهي لا تسمح لنا التعامل الفكري مع اللانهاية واللاتناهي ، وهي أيضاً لا تسمح لنا بتصور وجود سبب أول فيجب أن يكون هناك سبب قبله ، فلكل وضع أو حادثة أو شيء يجب وجود سبب .

نحن نستطيع التحكم في سير الحوادث وبالتالي بالنتائج عن طريق العمل على إدخال مؤثرات جديدة أو حذف مؤثرات أو تغيير الأوضاع ، لتوجيه سير الحوادث نحو وضع معين نريده .

فالأنسان (وكذلك الكثير من الكائنات الحية) لهم القدرة على الفعل نتيجة التفكير ، والتأثير على سير بعض الحوادث الطبيعي والتحكم فيه وتوجيهه نحو وضع معين يريدونه ، وهذا ما جعل الإنسان يشعر أن له إرادة بالتالي حرية العمل والقدرة على التحكم في الأشياء والأوضاع للوصول لوضع معين يريده . وهو يشعر أن يستطيع التخطيط و وضع الأهداف ، والعمل على تحقيقها .

التناقض والتضارب السببي

ينتج التناقض السببي عن عدم صحة أو توافق نتائج العوامل (أو الأسباب) مع الهدف الموضوع ، أو اعتماد أسباب لا تحقق أو تعيق تحقيق الهدف الموضوع مثال :

عمل الآلات الميكانيكية أو الأجهزة الكهربائية أو الإلكترونية . أن عمل الآلة وقيامها بالعمل المخصصة له وحصول النتائج المطلوبة , يستدعي عدم حصول أسباب تناقض أو تمنع أو تعيق عمل الآلة المخصصة له .

وكذلك استمرار حياة ونمو أي كائن حي يستلزم عدم حدوث عوامل أو مسببات تمنع أو تعيق استمرار حياته ونموه , مثل المرض أو تضرر الأعضاء أو أجهزته الحيوية .
فمعالجة المرض , وأصلاح أعطال الآلات والأجهزة , وإصلاح أي فشل لمشروع زراعي أم صناعي . . , يستلزم إزالة الأسباب التي أدت لذلك .

إن تحقيق أي هدف أو مشروع أو غاية يستلزم توفر العوامل والأسباب اللازمة , بالإضافة لعدم حصول تناقض أو تضارب سببي يعيق تحقيق ذلك .

فالمشاريع الهندسية والصناعية والعمرانية والزراعية , وكذلك التجارية والاجتماعية , كلها تتحاشى التناقض والتضارب السببي , وتكون نتائجها مرتبطة بمدى تحقيق ذلك .

وفي حالة المشاريع الهندسية والصناعية والعمرانية غالباً يمكن تحقيق ذلك إذا اعتمدت المعارف والعلوم الدقيقة اللازمة لتحاشي التضارب السببي .

وفي المشاريع الزراعية والبيولوجية وفي الطب , يكون تحقيق ذلك أصعب ولكنه ممكن الوصول لنتائج جيدة عند اعتماد المعارف الدقيقة المتوفرة .

أما في مجالات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية فالأمور معقدة جداً نظراً لكثرت العوامل والأسباب وتشابكها , لذلك تحقيق ذلك يكون نسبته متواضعة .

دور وأهمية المعلومات ودقتها في التعامل مع التناقض السببي وإزالته

التناقض السببي لا يمكن إزالته إلا بوجود معلومات دقيقة عن العوامل والأسباب , والتعامل معها بدقة وفاعلية . وحسب دقة وموضوعية المعلومات تكون درجة احتمال تحقيق الهدف الموضوع وتلافي التناقض السببي .

والمنهج الهندسي يعتمد بشكل أساسي على دقة و واقعية المعلومات والاختبار والتأكد من دقتها لتحاشي التناقض السببي الذي يعيق تحقيق المشاريع .

نحن نعرف أن إمكانية حصر كافة العوامل والأسباب لأي وضع , بصورة تامة ومطلقة مستحيل , فنحن نسعى لتحقيق التعامل مع أكبر كمية متاحة من العوامل والأسباب , ومراعات عدم تناقضها أو تضاربها مع مشاريعنا وأهدافنا . ومدى نجاحنا في ذلك مرتبط بكمية ودقة معارفنا , ودقة تنفيذنا ومراعيتنا لتحاشي التناقض والتضارب السببي .

" لقد ألحّ "ماخ" على التخلي عن مفهومي السبب والنتيجة بمعناهما التقليدي وتعويضهما بمفهوم الدالة , كما هو وارد في الرياضيات . ولقد بين التحليل بأن ما يسمى بالسبب ليس إلا عنصر مكمل لمركب معقد من العوامل والظروف التي تحدد مجتمعة النتيجة . ويعتبر ماخ أن أبسط مكون للوجود هو العلاقة وليس العنصر الفرد . فلا يمكن إدراك عناصر الطبيعة إلا من خلال علاقة . وتعتبر الدالة الوسيلة الأكثر ملائمة من غيرها للتعبير عن ظواهر الطبيعة باعتبارها علاقات , شريطة أن تتمكن من وصف وقائع الطبيعة بواسطة كمّيات قابلة للقياس .
وكذلك يقول " شليك " ينبغي للعلم الحديث أن يتبنى العمل بفكرة العلاقة الدالية بين الكيفيات القابلية للقياس , وأن يتخلى عن فكرة العلاقة السببية التقليدية ."

هناك أوضاع يظهر فيها التناقض السببي بشكل واضح , وهناك أوضاع يكون التناقض السببي فيها غير واضح أو يصعب اكتشافه , وهناك أوضاع يظهر أن فيها تناقض سببي , ولكن التدقيق فيها يظهر عدم وجود تناقض سببي فيها .

وعندما تكون الحوادث أو الأسباب احتمالية لعدم استطاعة حصر الأسباب اللازمة , يلجأ إلى اعتماد نسبة الاحتمال في اختيار الأسباب أو التصرفات وهذا ما يفعله غالبيتنا , فالتاجر والسياسي وكل إنسان في ممارسته العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية , يعتمدوا الاحتمالات المتوقعة الأفضل لهم . في تلك الأوضاع لا تتوفر الأسباب الدقيقة والصحيحة , فيعتمد على الاحتمالات المتوقعة , وحسب توفر المعلومات والخيارات المتاحة .

سؤال : ما مدى تأثير المعرفة على السببية ومسار الحوادث وتكوّن المستقبل ؟

أن الإرادة البشرية أو ما يسمى الحرية هو ناتج عن حدوث تغذية عكسية تؤدي إلى تحرك المستقبل وعدم ثباته إلى أن تتوقف دائرة التغذية العكسية أو يحدث الوصول إلى توازن واستقرار والقيام بأفعال معينة تقرر وتحدد المستقبل .

فالتخطيط والغائية وتوجيه مسار الأحداث باتجاه هدف أو غاية معينة هو بمثابة نشوء تغذية عكسية بين الحاضر والمستقبل الذي يتم توقعه أو تصوره من جهة والمستقبل الواقعي الذي يحصل بالتدريج , وهذا يؤدي إلى توجيه مسار الأحداث باتجاه الهدف الموضوع , فكلما حدث انحراف مسار الأحداث عن الاتجاه إلى الهدف تحدث تأثيرات يؤدي إلى إعادة توجيه مسار الأحداث باتجاه الهدف .

إي التغذية العكسية هي التأثير المتبادل بين الحاضر والمستقبل المتوقع أو المتصور , الذي يصبح حاضر يؤثر في المستقبل المتصور الذي يليه وهكذا دواليك إلى أن يتم الوصول أو تحقيق المستقبل الهدف الموضوع .